إيجاب بلا قبول

زينب محمد

فتحت عينيها بعد ســاعات نوم لو أُحصــيَت جميعها لما أتمّت في مجملها ســاعة واحدة، نظرتْ تجاه نافذتها التي تســدلها بســتارة سوداء مُعتمة بلون أيامها، تختبئ خلفها من عيون المارَّة، وانهمرت دمعة يتيمة من عينيها تروي جراحًا كاملة تتوسَّــع حلقاتها في قلبها حتى حفرت مكانًا مستديمًا، وصوتٌ صاخب يخترق أُذنيها: " لا... لا تأخذوه لم يفعل شــيئًا" وضــعت كلتا يديها على أذنيها لكي تكتم صــدى الصــوت العنيف، لكن كعادتها كلّ مرّة تتداخل جميع الأصوات في رأسـها فيحلّ آخرٍ يخبرها " أمي... ..أمي " تمدُّ يدها في محاولة منها لإنقاذه وكأنَّها تراه أمامها، بينما يخبرها آخر " احترقا"، خزعبلات لا تســمن ولا تغني من جوع تطاردها، تجعلها تقوم من سريرها تجري في أرجاء المنزل بأكمله، تفتح باب منزلها وتهرول إلى الشارع بأقصى سرعة كمن يبحث عن شيء مفقود، وخلفها امرأة في الخمســينيات من عمرها، تجرُّ جلباب الخيبة، تنادي بأعلى صوتها كندّاهة تتوسَّــل بحر الظلمات ليعيد لها ابنتها الغريقة، لكنها تأبى العودة لليابسة، هي التي تغوص فيه حتى الأعماق، لا يدفع الثمن إلا العجوز ، يُنادونها مَن حولها بأم المجنونة، تزدريها الأنظار، ويحتقرها الأقارب، بينما يتبرَّأ منها الأهل والمعارف، وينهال عليها القدر بويلاته ونوازله.

_" فليوقفها أحدكم"

تصرخ بأعلى صوتها وهي تركض خلفها كعادتها في كل صباح، تخاف فقدها تحت عجلات عربة مسرعة؛ تشير بيدها لاهثة للمارّة مكرّرة عبارتها:

_" فليوقفها أحدكم"

وما من مجيب، يتهامس الناس من حولها بفتورٍ:

_" أليست تلك المجنونة زوجة الإرهابيّ"؟

تتطلّع لها العيون بازدراء تام ثم يمضي كلٍ في طريقه، كل يوم في هذا الحال وما من مُعين، حتى تدور الدنيا برأسها من أثر الجري والهرولة، فتتمدَّد على الأرض، وتجلس بجانبها تنعي حظها البغيض، تبكي بحرقة، وتنظر للسماء تدعو الله أن يلهمها الصبر ويحفظها، ثمَّ تهدهد ابنتها كالطفلة الصغيرة، وتعود برفقتها إلى منزل يتشّح بالسواد من كافة جوانبه، تُدثّرها في سريرها، تجلس جوارها، تملّس على شعرها حتى تنام.

وتشرد ذاكرتها إلى بضع سنوات مَضتْ، عندما كانت في السابعة عشر من عمرها، دخل والدها يتنحنح برفقة شابٍ حديث السن يتبعه، همس لها في أذنيها: _" أحضري لنا غُزلان".

توقّفت جميع الأصوات من حولها فجأة عندما عند نطق اسمها، وهل يخفى الخبر أصبحت طفلتها فتاة ناضجة، أنثى يمكنها تحمل كافّة أعباء المنزل، لم تعد صغيرة لتحمّل مسؤولية زوج وبيت وأسرة وحما وطفل، لم يكن منها إلا إنها هزّت رأسها بإيجاب:

_" حسنًا".

دخلت على فتاتها غطّت ملامحها الباردة مثلما تغطي الشعر بالوشاح، وأبدلت تعابير الغضب بابتسامة زائفة ثم توجّهت إليها قائلة:

_" لدينا زُوار، ووالدكِ يريدكِ أن ترحبي بهم".

رفعت عينيها من بين كتبها المبعثرة حولها تتساءل في دهشة:

_" منذ متى نستقبل زوّارًا في منزلنا"؟

لم تجد ردًا على سؤالها بل زجرًا جعلها تلجم كلماتها:

_" دعي كل شيء تفعلينه، واخرجي سريعًا، ولا تنسيـ ارتداء عباءة فضاضة ووشاح طويل".

دبَّ الرعب في جسـدها، ليسـيطر عليها هاجسـها الذي لطالما تغاضـت عنه وعاتبته بتجاهلها له " إنه ما أحدّثكِ عنه منذ زمن، يبدو أنه قد حان أوانكِ".

ارتدت فضـفاضًـا مثلما أخبرتها والدتها، وخرجت تنفيذًا لرغبة والدها، توجّهت ناحية غرفة الضـيوف، طرقت الباب بخفّة، ثم دخلت بعد أن أذن لها، وقفت بجانب مقعد والدها تنظر بعينيها إلى الأرض، بينما عيناه تتفحّصانها بدقّة، ترصدانها من أعلى رأسـها إلى أخمص قدميها، تأكلانها أكلًا، لوهلة تمنّت في نفسـها أن تنشـقّ الأرض وتبتلعها، لكن هيهات فذاكَ لا يحدث إلّا في أضغاث أحلام، سـاد الصـمت لبرهة ثم قطعه صـوت والدها، يأمرها بالجلوس فجلسـت في كُرسي مجاور لكرسي والدها، ثمّ خرج والدها لدقائق تاركًا الباب مفتوحًا خلفه، ليتمَكّن الزائر من الحديث على راحته، كان كقاضٍ يستجوب جانٍ في قضية كاسبة لا محالة، لا يحتاج فيها لشهادته لكن لابد من إجراء الروتين، نظر بتعمُّق ثم سألها:

_" ماذا تدرسين؟"

وفي ثباتٍ تام جاءته إجابتها

_" لازلت بالصف الثاني الثانويّ"

عاد يحادثها بهدوء تام:

_"ما شاء الله من يراكِ يظنُّ أنكِ أنهيتِ الدراسة توًا"

زفرت بضـــيق في نفســـها إثر كلماته غير المُهذّبة وكأنه يُغازلها وراء حجاب، دعت ربّها أن ينجيها من ذاك المأزق، ثوانٍ ودخل والدها، فاســتأذنت للخروج، اصــطدمت بوالدتها في الصــالة تحمل بيدها صــينية الشــاي كواجب ضــيافة، وعادت لحجرتها تتابع مذاكرتها، تحاول ألا تلتفت للأمر، تنحيه عن عقلها قدر الإمكان، ما هي إلا دقائق قليلة ودلفت إليها والدتها تســألها رأيها في الزائر، لتجيب هي بسؤال آخر:

_" وما شأني به؟"

وكأنها متهم ينفي عن نفســه تهمة تشــير كافة أدلتها إليه وتشــهد أنه الجانٍ، تشيح ببصرها بعيدًا عنها لكن جميع محاولاتها تبوء بفشل ذريع، تنظر في عينيها وتخبرها بالواقع المرير، الشيــء الآثم الذي لا مفر منه ولا مهرب، فتتوجّه لها قائلة:

_" طفلتي، هذا هو مصيرنا الحتمي، مهما تعلّمت يجب أن ترضخي لذلك المصير، زيجة شاقَّة خير من شبح عانس"

انهمرت الدموع على وجنتيها، وانتفضت من جلستها تصيح بها:

_" لمَ عليَّ أن أرضخ لذلك المصير الذي صنعتموه أنتم بأيديكم، أنتِ ووالدي والمجتمع العقيم من صنعتم ذلك المصير، دعوني أكمل ما بدأته، فقط أتركوني أنهي تعليمي"

دخل عليها والدها، وتحدّث بكل حدّة وصرامة

_" أرسلتُ إليكِ والدتكِ لتخبريها رأيكِ بالعريس، لا لتعطيها درسًا في ما يجب أن يُفعل وما لا يجب" .

فغرت فاهًا لكنه لم يسمح لها بالتحدّث قاطعها قبل أن تلفظ كلمتها قائلًا:

_" عقد القران الأسبوع القادم، تجهَّزي"

ثم خرج وخلفه والدتها ليتركاها في حيرتها، تعاني وحدها،، تتقلّب عليها كافَّة أفكار الموت الشنيعة، تارة تقول سأقطع شرياني، وتارة أخرى تقول سأتناول مبيدًا حشريًا، وثالثة تقنع نفسها بلعق سم الفئران، كل شيء أمامها يهون على أن تتزوّج ذلك الرجل، مرّ الأسبوع سريعًا وهي حبيسة غرفتها، لا تخرج منها، منذ ذلك اليوم الذي نهرها فيه والدها وأخبرها بميعاد عقد القران، كُتِب الكتاب غصبًا عنها، كان عقدًا صوريًا كما يدعونها لأنها لم تكن قد بلغت سن الرشد بعد، وبعدها بشهر واحد دلفت إلى منزله كعروس، جميع بنات عائلتها كنَّ يحسدنها على تلك الزيجة، طبيب تحاليل ليس كمثله رجل، لكنها لم تهنأ يومًا معه فقد ألزمها المنزل، لم تكمل شهادتها التي تعهّد أمام والديها بعدم إعاقتها، أجلسها بالمنزل لتكون فقط تحت أمره ونهيه، يجدها متى شاء وعندما يطلبها هواه، وهي أسيرة ليس لها أي حقوق، حتى أنجبت الابن الأول فقالت سيهتدي

ويفعل مثلما قال الشرع، وعاشروهن بالمعروف، لكن لم يتغيّر شيء أنجبت الثاني فقالت سـيتعقّل لم يحدث، تزوّج الثانية وقال لي رخصة في ذلكَ، وأصـبح لا يدخل المنزل إلا نادرًا، تضـاربت أحواله واختلطت الأمور، وسـاء كل شيء وأصـبح متزمّتًا في معيشـته معها يضربـها بين الحين والفينة، حتى تُوفِّي والدها ورَثّت حالة والدتها لفترة، فأصـبحت تعودها كل يوم حتى اسـتقرّت حالتها، وذات يومٍ تركت طفليها بالمنزل وذهبت لتنظر حال والدتها، فجاءها خبر وقع عليها كالطامة الكبرى، كان حدث اشـتعال منزلها وطفليها بداخله، كلاهما احترقا وماتا، أكلتهما النار ونهشـت عظامهما، وبقوا رفاتًا، لم تهنأ بهما ولم ترهما عرسـانًا، حقّقت النيابة في الأمر فكان من سـبَّبَه صـدمة أكبر، وقعت على أذنيها، ذهب عقلها حينما اقتحموا منزل والدتها ذات ليلةٍ فجريّة والتقطوه من جوارها، أخذوا يجرّونه جرًا، وهي تُزحّف خلفه ممسكة في بنطاله وتردّد بألم:

_" دعوه... لم يفعل شيئًا... لقد احترق منزلنا، نحن مجنيٌّ علينا"

لم تكن تدري أنه هو من صـنع زجاجات (مولوتوف النابالم) وأن صانع السّم لابد حتمًا أن يتذوّقه......

تمت بحمد الله